

٤ - السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها

كانت «حَفْصَة بنت عمر بن الخطاب بن نُفَيْل بن عبد العُزَّى بن رياح بن عبد الله بن قُرْط بن رَزَّاح بن عديّ بن كعب بن لؤي»، وأما تدعى «زَيْنب بنت مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح»، وهي أخت «عبد الله بن عمر» لأبويه رضي الله عنهما، وأكبر منه سنًا. وقد تزوجت «خُنَيْس بن حذافة» السهمي.

وهاجرت «حَفْصَة» مع زوجها إلى المدينة، وقد شهد «خُنَيْس» بدرًا وأصابته جراحة يومئذ لم يلبث أن توفي منها، وقيل: بل بأحد، والأول أشهر، وهو خطأ كما قال الحلبي في سيرته ^(١).

وقال «أبو عمر بن عبد البر» في «الاستيعاب»: فلما تأيمت ذكرها «عمر» لأبي بكر، وعرضها عليه، فلم يُرجع إليه «أبو بكر» كلمة، فغضب من ذلك «عمر»، ثم عرضها على «عثمان» حين ماتت «رقية» بنت رسول الله ﷺ، فقال «عثمان»: ما أريد أن أتزوج اليوم.

فانطلق «عمر» إلى رسول الله ﷺ، فشكا إليه «عثمان» وأخبره بعرض «حفصة» عليه، فقال رسول الله ﷺ: «يتزوج «حفصة» من هو خير من «عثمان»، ويتزوج «عثمان» من هي خير من «حفصة»، ثم خطبها إلى «عمر» فتزوجها رسول الله ﷺ، فلَقِيَ «أبو بكر»، «عمر بن الخطاب»، فقال له: لا تَجِدْ عليّ في نفسك، فإن رسول الله ﷺ كان ذكر «حَفْصَة»؛ فلم أكن لأُقْسِي سِرَّ رسول الله ﷺ، ولو تركها لتزوّجتها.

وتزوجها رسول الله ﷺ، عند أكثرهم في سنة ثلاث من الهجرة، وقال أبو عبيدة: تزوجها سنة اثنتين من التاريخ ^(٢).

(١) السيرة الحلبي (٤٠٢/٣).

(٢) الاستيعاب (١٨١١/٤) والإصابة (٢٤٦٩/٤).

أما رواية «المحب الطبري» في «السمط الثمين» فقد جاء فيها: عن عمر: تأيمت «حَفْصَةَ بنت عمر» رضي الله عنها من «حُنَيْس بن حذافة» الهمي وكان أصحاب رسول الله ﷺ ممن شهد بدرًا، فتوفي بالمدينة.

قال عمر: فلقيت «عثمان بن عفان» رضي الله عنه فعرضت عليه «حَفْصَةَ» فقلت: إن شئت أنكحتك «حَفْصَةَ»، فقال: سأنظر في ذلك، فلبث ليالي، فلقيني، فقال: ما أريد أن أتزوج يومي هذا.

قال عمر رضي الله عنه، فلقيت «أبا بكر الصديق» فقلت: إن شئت أنكحتك «حَفْصَةَ»، فلم يرجع إلي شيئاً، فكنت أوجد عليه مني على «عثمان»، فلبثت ليالي، فخطبها رسول الله ﷺ، فأنكحتها إياه، فلقيني «أبو بكر»، فقال: لعلك وجدت عليّ حين عرضت عليّ «حَفْصَةَ» فلم أرجع إليك شيئاً!

قال: قلت: نعم، قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك شيئاً حين عرضتها عليّ، إلا أنني سمعت رسول الله ﷺ يذكرها، ولم أكن لأفشي سرّ رسول الله ﷺ، ولو تركها لكنتها^(١).

وعن سعيد بن المسيّب، قال: أم «عثمان» رضي الله عنه من «رقية» بنت رسول الله ﷺ، وأمّت «حَفْصَةَ بنت عمر بن الخطاب» رضي الله عنها من زوجها، فمرّ «عمر» بـ«عثمان» رضي الله عنه فقال: هل لك في «حفصة»، وكان «عثمان» رضي الله عنه، قد سمع النبي ﷺ يذكرها فلم يجبه، فذكر ذلك «عمر» رضي الله عنه للنبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «هل لك في خير من ذلك؟ أتزوج أنا «حَفْصَةَ» ويتزوج «عثمان» خيراً منها: «أم كلثوم». أخرجه أبو عمر وقال: حديث صحيح^(١).

وكان رسول الله ﷺ قد أسرَّ إلى «حَفْصَةَ» رضي الله عنها بسرّاً، واستكتمها إياه، إلا أنها أخبرت به صاحبته «عائشة» رضي الله عنها وكانتا متصادقتين، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْلِغِي مَرْضَاتِ أَرْوَاهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَرْوَاحِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ

(١) السمط الثمين (١٢٥، ١٢٦).

أَبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأِي أَلْعَلِيمُ الْحَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ نُوِيَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمُ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مِمَّا مُمِنْتِ فَأَنْتِ مَنِيبَةٌ مِّنْ عِدَاتِ سِحْرِ نَيْبٍ وَأُنكَارًا ﴿٥﴾ [التخريم، الآيات: ١-٥].

وأخرج العلامة «الآلوسي» في تفسيره القيم «روح المعاني» لهذه الآيات: روى البخاري، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه، عن عائشة رضي الله عنها؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند «زينب بنت جحش» ويشرب عندها عسلاً، فتواصيت أنا و«حفصة» إن أئتنا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل: إني أجد منك ريح مغاير، أكلت مغاير؟ فدخل على إحداهما، فقالت ذلك له، فقال: «لا بل شربت عسلاً عند «زينب بنت جحش» ولن أعود».

وفي رواية: «وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحداً» فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التخريم، الآية: ١] الخ.

وفي رواية: قالت «سودة»: أكلت مغاير؟ قال: «لا»، قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: «سقتني «حَفْصَةَ» شربة عسل»، فقالت: جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُطُ، فحرَّم العسل، فنزلت.

وفي حديث رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، عن عائشة رضي الله عنها: شرب العسل في بيت «حَفْصَةَ»، والقائلة «سودة» و«صفية».

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، قال الحافظ السيوطي، بسند صحيح عن ابن عباس، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شرب من شراب عند «سودة» من العسل، فدخل على «عائشة» فقالت: إني أجد منك ريحاً فدخل على «حَفْصَةَ»، فقالت: إني أجد منك ريحاً، فقال: «أراه من شراب شربته عند «سودة» والله! لا أشربه» فنزلت.

وأخرجه النسائي، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له أمة يطؤها فلم تزل به «عائشة» و«حَفْصَةَ» حتى جعلها على نفسه حراماً، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التخريم، الآية: ١].

ويوافقه ما أخرجه البزار، والطبراني بسند حسن صحيح، عن ابن عباس، قال: نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحریم، الآية: ١] الآية في سُرِّيَّتِهِ.

والمشهور أنها «مارية» وأنه عليه الصلاة والسلام وطئها في بيت «حفصة» في يومها، فوجدته وعاتبته فقال ﷺ: «ألا ترضين أن أُحَرِّمَهَا فلا أقربها؟»، قالت: بلى، فحَرَّمَهَا.

وفي رواية: أن ذلك كان في بيت «حَفْصَةَ» في يوم «عائشة».

وفي «الكشاف» روي أن رسول الله ﷺ خلا بمارية يوم «عائشة» وعلمت بذلك «حَفْصَةَ»، فقال لها: «اكتمي عليّ وقد حرّمت «مارية» على نفسي، وأبشرك أن «أبا بكر» و«عمر» يملكان بعدي أمر أمّتي»، فأخبرت «عائشة» وكانت متصادقتين.

وبالجملّة الأخبار متعارضة، وقد سمعت ما قيل فيها، لكن قال «الخفاجي»: قال «النوي» في شرح «مسلم»: الصحيح أن الآية في قصة العسل، لا في قصة «مارية» المروية في غير الصحيحين، ولم تأت قصة «مارية» في طريق صحيح، ثم قال «الخفاجي»، نقلاً عنه أيضاً: الصواب أن شرب العسل كان عند «زينب» رضي الله عنها.

وقال «الطبي» فيما نقلناه عن «الكشاف» ما وجدته في الكتب المشهورة، والله أعلم.

والمَعَاوِير: بفتح الميم والغين المعجمة وبياء بعد الفاء - على ما صوّبه القاضي عياض - جمع مُغْفُور بضم الميم: شيء له رائحة كريهة ينضحهُ العُرْفُطُ، وهو شجر أو نبات له ورق عريض، وعند المطلع أن العُرْفُطُ هو الصمغ، والمُغْفُور شوك له نور يأكل منه النحل يظهر العُرْفُطُ عليه، وكان ﷺ يحب الطيب جيداً، ويكره الرائحة الكريهة للطافة نفسه الشريفة، ولأن المَلَكَ يأتيه، وهو يكرهها فَشَقَّ عليه ﷺ ما قيل فجرى ما جرى.

وفي ندائه ﷺ يا أيها النبي - في مفتتح العتاب من حسن التلطف به، والتنويه بشأنه عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لِهَٰمٍ﴾ [التوبة، الآية: ٤٣] ، والمراد بالتحريم الامتناع، وبما أحل الله العسل على ما صححه «النووي» رحمته أو وُظِّمَ سُرِّيَّتَهُ على ما في بعض الروايات، ووجه التعبير - بما - على هذين التفسيرين ظاهر^(١).

ثم نقل «الآلوسي» عن ابن مردويه، عن ابن عباس، وابن أبي حاتم، عن مجاهد أن النبي ﷺ أسراً إلى «حَفْصَةَ» تحريم «مارية» وأن «أبا بكر» و«عمر» يليان الناس بعده، فأسرت ذلك إلى «عائشة» فعرف بعضه وهو أمر «مارية» وأعرض عن بعض، وهو أن «أبا بكر» و«عمر» يليان بعده مخافة أن يفشو، وقيل: بالعكس، وقد جاء إسرار أمر الخلافة في عدة أخبار، فقد أخرج ابن عدي، وأبو نعيم في فضائل «الصدوق» وابن مردويه من طرق، عن «علي» كرم الله وجهه، وابن عباس قالوا: إن إمارة «أبي بكر» و«عمر» لفي كتاب الله ﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ [التخريم، الآية: ٣] قال لِحَفْصَةَ: «أبوك وأبو عائشة واليا الناس بعدي، فإياك أن تخبري أحداً»^(٢).

ثم قال «الآلوسي»: وقصارى ما يمكن أن يقال: يحتمل أن يكون النبي ﷺ قد شرب عملاً عند «زينب» كما هو عادته، وجاء إلى «حَفْصَةَ» فقالت له ما قالت فحرم العسل، واتفق له عليه الصلاة والسلام - قبيل ذلك أو بعينه - أن وطىء جاريتيه «مارية» في بيتها، في يومها، على فراشها، فوجدت فحرم ﷺ «مارية» وقال لِحَفْصَةَ ما قال تطيباً لخاطرها، واستكتمها ذلك فكان ما كان، ونزلت الآية بعد القستين فاقصر بعض الرواة على إحداهما والبعض الآخر على نقل الأخرى، وقال كل: فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ [التخريم، الآية: ١] إلخ، وهو كلام صادق، إذ ليس فيه دعوى كل حصر علة النزول فيما نقله، فإن صح هذا هان أمر الاختلاف، وإلا فاطلب لك غيره، والله تعالى أعلم^(٣).

وبناء على ما صنعته «حَفْصَةَ» وأخواتها من أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - قرر رسول الله ﷺ اعتزال أزواجه جميعاً. ومكث ﷺ بعيداً عنهن تسعة

(١) روح المعاني (٢٨/١٤٦، ١٤٧).

(٢) و(٣) روح المعاني (٢٨/١٥١).

وعشرين يوماً، لا يجرؤ أحد من أصحابه على محادثته بشأنهن، وسرى همس بين المسلمين مفاده أن النبي ﷺ طلق أزواجه، فاكتأب المسلمون لذلك وغشيم الأسي الشديد مواساة لرسول الله ﷺ في حزنه.

يُبدَأُ أن «عمر» رضي الله عنه لا يستطيع أن يلتزم الصمت في مثل هذه الظروف، ولا بد له أن يستجلي حقيقة ما جرى من فم الصادق المصدوق دون سواه، فتوجه لیسأله عن مدى صحة ما يقال عن طلاقه لنسائه أو أن الأمر على خلاف ذلك.

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه، عن جابر بن عبد الله، قال: دخل «أبو بكر» يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوساً ببابه، لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر، فدخل، ثم أقبل «عمر» فاستأذن فأذن له، فوجد النبي ﷺ جالساً حوله نساؤه، واجماً - اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام -.

قال: فقال: لأقولن شيئاً أضحكُ النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! لو رأيت «بنت خارجه»! سألتني النفقة فقلت إليها فوجأت عنقها، فضحك رسول الله ﷺ، وقال: «هن حولي كما ترى» يسألني النفقة.

فقام «أبو بكر» إلى «عائشة» يَجَأُ عنقها، فقام «عمر» إلى «حفصة» يَجَأُ عنقها، كلاهما يقول: تَسْأَلُنَ رسول الله ﷺ ما ليس عنده، فقلن: والله! لا نسأل رسول الله شيئاً أبداً ليس عنده، ثم اعتزلهن شهراً أو تسعاً وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أَمْ تَتَعَالَوْنَ وَأَسْرَحَكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿١٨﴾ وَإِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب، الآيتان: ٢٨، ٢٩]، قال: فبدأ بعائشة، فقال: «يا عائشة! إنني أريد أن أعرض عليك امرأة أحب ألا نمجلي فيه حتى تستشيرني أبويك» قالت: وما هو؟ يا رسول الله! فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله! أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت، قال: «لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً - المعنت: المشددة على الناس، والمتعنت: الذي يطلب زلتهم -، ولكن بعثني معلماً ميسراً»^(١).

(١) صحيح مسلم (٢٩/١٤٧٨).

وروى مسلم أيضاً عن زهير بن حرب، حدثنا عمر بن يونس الحنفي، حدثنا عكرمة بن عمار، عن سماك؛ أبي زُمَيْل، حدثني عبد الله بن عباس، حدثني «عمر بن الخطاب»، قال: لما اعتزل نبيُّ الله ﷺ نساءه، قال: دخلتُ المسجد، فإذا الناس ينكتون بالحصى - يضربون به الأرض -، ويقولون: طَلَّقَ رسول الله ﷺ نساءه، وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب.

فقال «عمر»: فقلت: لأَعْلَمَنَّ ذلك اليوم، قال: فدخلتُ على «عائشة»، فقلتُ: يا بنت أبي بكر! أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ؟ فقالت: مالي ومالك؟ يا بن الخطاب! عليك بعيتك - تعني ابنته «حَفْصَةَ» رضي الله عنها.

قال: فدخلتُ على «حَفْصَةَ» بنتِ عمرَ فقلت لها: يا حَفْصَةَ! أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ، والله! لقد علمتِ أن رسول الله ﷺ لا يحبك، ولولا أنا لطلقك رسول الله ﷺ، فبكت أشد البكاء، فقلت لها: أين رسول الله ﷺ؟ قالت: هو في خِزانته - مخزنه - في المَشْرُبَةِ - الغرفة -، فدخلتُ، فإذا أنا برباح غلام رسول الله ﷺ قاعداً على أُسْكُفَةِ المَشْرُبَةِ عتبة الباب السفلى - مُدَلِّ رجليه على نَقِيرٍ - خشب نقر وسطه ليكون كالدرجة - من خشب، وهو جَذَعٌ يرقى عليه رسول الله ﷺ وينحدر، فناديتُ: يا رباح! استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فنظر «رباح» إلى الغرفة، ثم نظر إليّ، فلم يقل شيئاً.

ثم قلتُ: يا رباح! استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فنظر «رباح» إلى الغرفة، ثم نظر إليّ، فلم يقل شيئاً، ثم رفعت صوتي، فقلت: يا رباح! استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فإني أظن أن رسول الله ﷺ ظن أنني جئت من أجل «حَفْصَةَ»، والله! لئن أمرني رسول الله ﷺ بضرب عنقها لأضربن عنقها، ورفعتُ صوتي، فأوماً إليّ أن ارفقه.

فدخلتُ على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير، فجلستُ، فأدنى عليه إزاره، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرتُ ببصري في خزانة رسول الله ﷺ، فإذا أنا بقبضةٍ من شعيرٍ نحو الصاع، ومثلها قَرَطاً - ورق السَلَمِ يُدْبَعُ به - في ناحية الغرفة، وإذا أفيقٌ - جلد لم يدبغ - معلق.

قال: فابتدرت عيناى - سألت دموعي -، قال: «ما بيكيك؟ يا بن الخطاب!»

قلت: يا نبي الله! ومالي لا أبكي؟ وهذا الحصر قد أثر في جنبك، وهذه خزانك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك «قصر» و«كسرى» في الشمار والأنهار، وأنت رسول الله ﷺ وصفوته، وهذه خزانك.

فقال: «يا بن الخطاب! ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟» قلت:

بلى.

قال: ودخلت عليه حين دخلت، وأنا أرى في وجهه الغضب، فقلت: يا رسول الله! ما يسق عليك من شأن النساء؟ فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته و«جبريل» و«ميكائيل»، وأنا و«أبو بكر» والمؤمنون معك، وقلما تكلمت، وأحمد الله، بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي الذي أقول.

ونزلت هذه الآية، آية التخيير^(١): ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ زَوْجًا حَيْرًا مِّنْكَ﴾ [التخريم، الآية: ٥] ، ﴿وَإِنْ تَطَهَّرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التخريم، الآية: ٤] .

وكانت «عائشة بنت أبي بكر» و«حفصة» تظاهران على سائر نساء النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله! أطلقتهن؟ قال: «لا»، قلت: يا رسول الله! إنني دخلت المسجد، والمسلمون ينكتون بالحصى، يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن؟ قال: «نعم، إن شئت»، فلم أزل أحدثه حتى تحسّر الغضب عن وجهه، وحتى كسّر - أبدى أسنانه تبسماً - فضحك، وكان من أحسن الناس ثغراً، ثم نزل نبي الله ﷺ ونزلت، فنزلت أتشبّث بالجدع، ونزل رسول الله ﷺ كأنما يمشي على الأرض ما يمهّ بيده، فقلت: يا رسول الله! إنما كنت في الغرفة تسعة وعشرين، قال: «إن الشهر يكون تسعاً وعشرين» فقامت على باب المسجد، فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه. ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَاعُوا بِهِ وَوَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء، الآية: ٨٣] ، فكنت أنا

(١) آية التخيير ليست هذه: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ﴾ الواردة في سورة التخريم، ولكنها الآية ٢٨ من سورة الأحزاب ﴿بِأَيِّهَا الَّذِي قُلْ لَا تَزْنِي﴾ كما هو مبين في الحديث (١٤٧٥/٢٢)، لذا اقتضى التنويه، وسأذكر الحديث بعد صفحة واحدة.

استنبطت ذلك الأمر، وأنزل الله ﷺ آية التخيير^(١).

وأخرج مسلم آية التخيير في الحديث التالي الذي رواه عن ابن شهاب، أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف؛ أن «عائشة» رضي الله عنها قالت: لما أمر رسول الله ﷺ بتخيير أزواجه بدأ بي، فقال: «إني ذاكرك لأمراً، فلا عليك إلا تعجلي حتى تستأمري أبويك».

قالت: قد علم أن أبوي لم يكونا ليأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: «إن الله ﷻ قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعَنَّ وَأَسْرَحَنَّ سَرَّاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب، الآيات: ٢٨، ٢٩].

قالت: فقلت: في أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني اختار الله ورسوله والدار الآخرة.

قالت: ثم فعل أزواج رسول الله ﷺ مثل ما فعلت^(٢).

وكانت «حفصة» رضي الله عنها قلبها عامر بالإيمان، مشغوف بالجهاد، وقد شهد غزوة بدر من أهلها: أبوها «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه، وعمها «زيد بن الخطاب» رضي الله عنه وزوجها «خنيس بن حذافة» رضي الله عنه، وأخوالها «عثمان» و«عبد الله» و«قدامة» بنو مظعون، و«السائب بن عثمان بن مظعون» ابن خالها رضي الله عنه، ذكره «المحب الطبري» في «السمط الثمين» وعزاه للدارقطني^(٣).

وقد تعلمت «حفصة» رضي الله عنها القراءة والكتابة، وكانت «الشفاء بنت عبد الله» العدوية تزورها، وحين رآها رسول الله ﷺ عندها قال لها: «علميها رقية النملة كما علمتها الكتابة»، وكانت السيدة «عائشة» والسيدة «أم سلمة» تقرأ القرآن، لكنهما لا تعرفان الكتابة، وقد أكتبت «حفصة» على تعلم القرآن والسنة حتى أصبحت مرجعاً فقهياً هاماً، وكان والدها «عمر» رضي الله عنه يرجع إليها في المسائل التي تتعلق بفقهاء المسلمين، ولم يكن علم «عمر» بقليل، ويدل ذلك على سعة

(١) صحيح مسلم (١٤٧٩/٣٠).

(٢) صحيح مسلم (١٤٧٥/٢٢).

(٣) السمط الثمين (١٢٩).

اطلاعها، وحسن فهمها لأحكام الدين القويم، وقد تركت لنا العديد من الخطب والأقوال الدالة على فصاحتها وبلاغتها.

ولما جئش «أبو بكر الصديق» الجيوش لقتال المرتدين، قتل كثير من القراء وحفظه القرآن في تلك المعارك، فجاءه «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه، وعرض عليه جمع القرآن من الرُّقْم والجلود والسَّعف والعظام التي كتبت آياته عليها، فراقت النكرة لأبي بكر، واستدعى كاتب الوحي «زيد بن ثابت» رضي الله عنه، وأسند إليه تلك المهمة الجليلة.

ولم يأل «زيد» جهداً في جمع كل الأشياء التي كان القرآن يكتب عليها، ثم نسخها في صحيفة واحدة، وأودعها «أبا بكر» رضي الله عنه، وحين حضرته الوفاة عهد بها إلى «عمر» رضي الله عنه، فأعطاها ابنته «حفصة» لتكون الحارسة الأمانة عليها رضي الله عنها.

وفي عهد «عثمان بن عفان» رضي الله عنه خرج «حذيفة بن اليمان»، إلى أرمينية وأذربيجان مجاهداً، فرأى اختلافاً بيناً في القراءات بين الأقطار التي دخلها، ولما عاد عرض الأمر على الخليفة، فاستدعى «عثمان» رضي الله عنه أربعة من أهل الفصاحة والعلم والثقة، وهم: «زيد بن ثابت» و«عبد الله بن الزبير» و«سعيد بن العاص» و«عبد الرحمن بن الحارث بن هشام» ثم أرسل إلى أم المؤمنين «حفصة بنت عمر» لتعيّره الصحيفة التي لديها، على أن يعيدها بعد أن تنجز اللجنة عملها إليها، ثم أوصى اللجنة بكتابة القرآن في نسخ موحدة، وأمرهم إذا اختلفوا في شيء فليكتبوه، بلسان قريش لأن القرآن نزل بلسانها، فلما أتمت اللجنة عملها، احتفظ «عثمان» رضي الله عنه بنسخة، ثم أمر ببقية النسخ لتوزع على الأمصار، وأمر برد صحيفة «حفصة» إليها، فجزى الله كل من أسهم في ذلك العمل الجليل عن المسلمين كل خير.

وكانت «حفصة» رضي الله عنها ممن يروي الحديث ويروى عنها، لأنها واحدة من أمهات المؤمنين اللواتي كن يتلقين الحديث الشريف غصاً طرياً من الحبيب الأعظم ﷺ بحكم قربه منهن، ووجوده بينهن.

وقد ذكر الإمام النووي في تهذيبه أن «حفصة» رضي الله عنها روت ستين حديثاً، عن النبي ﷺ، روى لها البخاري منها ثلاثة أحاديث، وقيل: أربعة، كما روى لها

مسلم ستة منها^(١)، وكان أخوها «عبد الله بن عمر» رضي الله عنه كثير التردد عليها ليسألها عن هدي رسول الله ﷺ أو ليروي عنها. وكان «حمزة» ابن أخيها «عبد الله» و«حارثة بن وهب» و«المسيب بن رافع» و«عبد الله بن صفوان بن أمية» و«أم مبشر» و«صفية بنت أبي عبيد» امرأة «عبد الله بن عمر» ممن رووا عنها.

وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه حديث الرؤيا التي رآها «عبد الله بن عمر» وقصها على أخته «حَفْصَةَ»، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، قال: رأيت في المنام كأن في يدي قطعة إستبرق - ما غلظ من الديداج -، وليس مكان أريد من الجنة إلا طارت إليه، قال: فقصصته على «حَفْصَةَ»، فقصت «حَفْصَةَ» على النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «أرى عبد الله رجلاً صالحاً»^(٢).

وروى مسلم عن معمر، عن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر، قال: كان الرجل في حياة رسول الله ﷺ إذا رأى رؤيا، قصها على رسول الله ﷺ، فتمت أن أرى رؤيا أقصتها على النبي ﷺ، قال: وكنت غلاماً شاباً عزياً، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله ﷺ، فرأيت في النوم، كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مَطْوِيَّة كطي البئر، وإذا لها قرنان كقرني البئر، وإذا فيها ناسٌ قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، قال: فلقيهما مَلَكٌ فقال لي: لَمْ تُرْعَ - أي: لا روع عليك ولا ضرر - فقصصتها على «حَفْصَةَ»، فقصتها «حَفْصَةَ» على رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: «نعم الرجل «عبد الله!» لو كان يصلي من الليل».

قال «سالم»: فكان «عبد الله» بعد ذلك، لا ينام من الليل إلا قليلاً^(٣).

وكانت «حَفْصَةَ» رضي الله عنها برسول الله ﷺ، وبأبيها «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه، في الإعراض عن زخرف الحياة الدنيا ومتاعها، وقبست عنهما ضرورة العمل للدار الباقية، لا للدار الفانية، ومشت على خطى أبيها الذي سلك سبيل صاحبيه في الدنيا لأنوه لو حاد عن سبيلهما لما كان له في لقائهما في الآخرة نصيب، وحرصت على ذلك حتى فارقت الحياة.

(١) التهذيب للنووي (١/٣٣٩).

(٢) صحيح مسلم (١٣٩/٢٤٧٨).

(٣) صحيح مسلم (١٤٠/٢٤٧٩).

وكانت «حَفْصَةَ» رضي الله عنها من العابدات القانتات، نهارها صيام، وليلها قيام، وهذا دأبها في تقطيع الأيام، وقد أسدى لها والدها «عمر» رضي الله عنه نصيحة غالية، موجزها ألا تحاول مزاحمة عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وألا تُساميها عنده، وكان يقول لها: أين أنت من «عائشة»؟ وأين أبوك من أيها؟ فجعلت «حَفْصَةَ» تلك الوصاة العمرية نُضَبَ عينيها، ثم هداها فكرها إلى اتخاذ «عائشة» رضي الله عنها صديقة لها خير من منافستها، وهكذا صفا بينهما الود، واستحكم الصفاء.

وذات يوم، كان «عمر» في حديث مع امرأته، فإذا هي تعارضه، وترفع صوتها عليه، خلافاً لعهده بها، ولما هَمَّ بتأديبها بادرته بقولها: إنك لا تسمح لأحد بمراجعتك، وهناك من هي أفضل مني، وتراجع من هو أفضل منك، عبارة لم يعتد «عمر» سماعها من قبل، فأمسك عما هَمَّ به، لأنه يريد أن يعرف من المقصود بمقاتلتها تلك، فقال لها: من المقصود بقولك؟ وإلى مَنْ تُشيرين؟ فقالت: إن ابنتك «حَفْصَةَ» لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إنه ليبقى مغضباً سائر يومه.

وصعق «عمر» رضي الله عنه لِمَا سمع، ولم يكن يدور في خلدته أن تصنع ابنته مثل ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يلبث أن وضع عليه ثيابه، ثم انطلق إلى بيت «حفصة» ليتبَّت من قول امرأته ويستوثق.

حتى إذا وگدَّت له «حَفْصَةَ» حدوث هذا في بعض الأحيان أخذته الدهشة، وعجب من ابنته ومن صواحبتها الأخريات، كيف يفعلن ما يفعلن، ولا يخشين من غضب الله عليهن انتصاراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟

ثم قال لحفصة رضي الله عنها: يا بنية! لا يَغُرُّنَّكِ هذه - يقصد عائشة - التي قد أعجبها حسننها، وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم لها، ثم أردف يقول: لا تراجعني رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تسأليه، وسليني أنا كل ما بدا لك.

وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور، عن ابن عباس، قال: لم أزل حريصاً أن أسأل «عمر» عن المرأتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله تعالى: ﴿إِنْ نُبَايَعْتَا إِلَى اللَّهِ فَفَدَّ صَعَتَ﴾

﴿قُلُوبِكُمْ﴾ [التخريم، الآية: ٤] ، حتى حَجَّ «عمر» وحججتُ معه، فلما كُنَّا ببعض الطريق، عدل «عمر» وعدلتُ معه، بالإداوة، فتهرَّز، ثم أتاني فكبتُ على يديه، فتوضَّأ، فقلت: يا أمير المؤمنين! من المرأتان من أزواج النبي ﷺ، اللتان قال الله ﷻ لهما: ﴿إِنْ نُوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبِكُمْ﴾ [التخريم، الآية: ٤] .

قال «عمر»: واعجباً لك يا بن عباس! (قال الزهري: كره والله! ما سأله عنه ولم يكتبه).

قال: هي «حَفْصَة» و«عائشة»، ثم أخذ يسوق الحديث .

قال: كنا معشر قريش، قوماً نغلب النساء، لما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نساؤهم .

قال: وكان منزلي في بني أمية بن زيد، بالعوالي - موضع قرب المدينة -، فتغضبتُ يوماً على امرأتي، فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله! إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، فانطلقتُ فدخلتُ على «حَفْصَة»، فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ؟ فقالت: نعم، فقلت: أتتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم، قلتُ: قد خاب مَنْ فَعَلَ ذلك منكن وخسر، أفأتمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ﷺ، فإذا هي قد هلكت؟ لا تراجعني رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئاً، وسليني ما بدا لك، ولا يَغُرَّنْكَ أَنْ كانت جارتك ضرتك - هي أوسم وأحب إلى رسول الله ﷺ منك (يريد عائشة).

قال: وكان لي جار من الأنصار، فكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ، فينزل يوماً وأنزل يوماً، فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وأتية بمثل ذلك .

وكنا نتحدَّث أن «غسان» تُنْعِلُ الخيلَ - يجعلون لها نعلاً - لَتَغْرُونَا، فنزل صاحبي، ثم أتاني عشاء فضرب بابي، ثم ناداني، فخرجتُ إليه، فقال: حدث امرٌ عظيمٌ، قلت: ماذا؟ أ جاءت «غسان»؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك وأطول، طلق النبي ﷺ نساءه، فقلت: قد خابت «حَفْصَة» وخسرت، قد كنت أظن هذا كائناً، حتى إذا صليتُ الصبحَ، شددتُ عليَّ ثيابي، ثم نزلتُ، فدخلتُ على «حَفْصَة» وهي تبكي، فقلت: أطلقكن رسول الله ﷺ؟ فقالت: لا أدري، ها هو ذا

معتزلاً في هذه المَشْرُبة، فأتيته غلاماً له أسود، فقلت: استأذنْ لعمر، فدخل، ثم خرج إليّ، فقال: قد ذكركَ له فصمتَ.

فانطلقتُ حتى انتهيتُ إلى المنبر، فجلستُ، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم، فجلستُ قليلاً، ثم غلبنِي ما أجد، ثم أتيتُ الغلام، فقلت: استأذنْ لعمر، فدخل، ثم خرج إليّ، فقال: قد ذكركَ له فصمتَ، فوليتُ مدبراً، فإذا الغلام يدعوني، فقال: ادخل، فقد أذن لك، فدخلتُ، فسلمتُ على رسول الله ﷺ، فإذا هو متكئٌ على رَمْلٍ حصير - أي: حصير منسوج - قد أثر في جنبه، فقلت: أطلقتُ يا رسول الله! نساءك؟ فرفع رأسه إليّ، وقال: «لا» فقلت: الله أكبر! لو رأيتنا، يا رسول الله! وكنا معشر قريش، قوماً تغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فتغضبْتُ على امرأتي يوماً، فإذا هي تراجعني، فأنكرتُ أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله! إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، فقلت: قد خاب مَنْ فَعَلَ ذلك منهن وخسر، أفتأمن إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ﷺ، فإذا هي قد هلكت؟ فتبسم رسول الله ﷺ.

فقلت: يا رسول الله! قد دخلت على «حفصة» فقلت: لا يُعزِّركَ أن كانت جارتك هي أوسمُ منك وأحبُّ إلى رسول الله ﷺ منك، فتبسم أخرى، فقلت: أستأنسُ؟ يا رسول الله! قال: «نعم»، فجلستُ، فرفعتُ رأسي في البيت، فوالله! ما رأيت فيه شيئاً يردُّ البصر، إلَّا أهبأ ثلاثة، فقلت: ادعُ الله يا رسول الله! أن يوسِّع على أمتك، فقد وسَّع على فارسَ والروم، وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً، ثم قال: «أفي شك أنت؟ يا ابن الخطاب! أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا» فقلت: استغفر لي، يا رسول الله! وكان أقسمَ ألا يدخلَ عليهن شهراً، من شدة مَوْجِدَتِهِ - أي: غضبه - عليهن، حتى عاتبه الله ﷻ.^(١)

وأخرج «أبو نعيم» في «حلية الأولياء» عن عقبه بن عامر، قيل: لما طلق رسول الله ﷺ «حفصة بنت عمر»، فبلغ ذلك «عمر»، فوضع التراب على

(١) صحيح مسلم (١٤٧٩/٣٤).

رأسه، وجعل يقول: ما يعبأ الله بعمر بعد هذا، قال: فنزل «جبريل» ﷺ من الغد على رسول الله ﷺ، فقال: إن الله تعالى يأمرك أن تراجع «حَفْصَةَ» رحمة لعمر^(١).

وروى «أبو نعيم» في حليته أيضاً، عن عاصم، عن زر، عن عمار بن ياسر، قال: أراد رسول الله ﷺ أن يطلق «حَفْصَةَ» فجاء «جبريل» فقال: لا تطلقها، فإنها صوامة قوامة، وإنها زوجتك في الجنة^(٢).

وروى «أبو نعيم» في حليته أيضاً، عن قيس بن زيد: أن النبي ﷺ طلق «حَفْصَةَ» بنت عمر» فدخل عليها خالها «قدامة» و«عثمان» ابنا مظعون، فبكت، فقالت: والله! ما طلقني عن شع.

وجاء النبي ﷺ، فتجلببت، فقال: «قال لي «جبريل»: أرجع «حَفْصَةَ» فإنها صوامة قوامة، وإنها زوجتك في الجنة»^(٣).

وأخرج المحب الطبري في سِمْطِهِ، عن الزهري، قال: أصبحت «عائشة» و«حَفْصَةَ» ﷺ - صائمتين، وأهدي لهما طعام فأكلتا منه، فدخل عليهما النبي ﷺ. قالت «عائشة»: فبدرتني - سبقتني - «حَفْصَةَ» - وكانت ابنة أبيها -، قالت: يا رسول الله! أهدني لنا طعام فأكلنا، فتبم رسول الله ﷺ، وقال: صوما يوماً مكانه^(٤).

ولما حضرت «حَفْصَةَ» الوفاة، أوصت إلى «عبد الله» أخيها بما أوصى إليها «عمر»، وتصدقت بمال لها وقفته بالغابة.

وأخرج «ابن سعد» في «الطبقات الكبرى»: توفيت في شعبان سنة خمس وأربعين بالمدينة، وصلى عليها «مروان بن الحكم» أمير المدينة، وحمل سريرها بعض الطريق، ثم حمله «أبو هريرة» إلى قبرها، ونزل في قبرها: «عبد الله» و«عاصم» ابنا عمر، و«سالم» و«عبد الرحمن» و«حمزة» بنو «عبد الله بن عمر»،

(١) الحلية (٥٤/٢)، والسِمْطُ الثمين (١٢٨).

(٢) الحلية (٥٤/٢).

(٣) الحلية (٥٤/٢)، والسِمْطُ الثمين (١٢٧).

(٤) السِمْطُ الثمين (١٢٩).

وقد بلغت ستين سنة^(١)، وتوفيت في حين بايع «الحسن بن علي» رضي الله عنه لمعاوية في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين، كما قال «أبو عمر بن عبد البر»^(٢). رحمها الله تعالى.

(١) الطبقات (٨/٨٦).
(٢) الاستيعاب (٤/١٨١٤).